ولكن لا تدع ابنتك تعلم شيئاً مما جرى بيننا

فقال النهام الله يوفق . وخرج غون من الغرفة فسمع اوليبا تنادي ابيها وتقول لهُ قل لضيفك ان يتفضل و يشرب فنجان شاي معنا

فالتفت الى غون وقال لهُ ادخل اشرب فنجان شاي لماذا لا تدخل . فنظر اليهِ غون شزرًا وقال لهُ اتدّعي انك تهتم بامرها ثم تركهُ وسار وخرج من البيت وكأنهُ رماهُ بسهم صائب بتلك النظرة

ولما وصل الى الشارع الذي امام الباب مرّ بهِ رجل منحني الرأس غائر العينين وهو كاثري صراف البنك كان من عادتهِ ان يمشي امام بيت المدير حيث تقيم الفتاة التي علق حبها قلبهُ . ولم يلتفت غون الى كاثري ولكن كاثري رآهُ جيدًا فرسخت صورتهُ في ذهنهِ (ستأتي البقية)

بورت آرثر والحرب الحاضرة

من يرمِ بنظرهِ دقيقة واحدة على خارطة اوربا يرَ ان روسيا على اتساع مساحتها لا ميناء بحريًّا لها الاَّ على البلطيك حيث يبقى الجليد نحوًا من عدة اشهر يمنع من حركة البواخر والسفن ولما كان وجود الموانئ البحرية في الدول من اهم عوامل تقدمها واسباب عظمتها حاولت روسيا مرارًا ان تصل الى البحر المتوسط فما افلحت ووجدت من الصعوبات والمقاومات ما ايأسها وكاد يذهب بامانيها . فمن ثم وجهت نظرها الى الشرق الاقصى فكان احسن ميناء وجدتهُ هناك ميناء فلاديفوستك . الاَّ انهُ في اقصى المعمور من جهة المشرق على تنحيهِ عن طرق التجارة العامة وفوق ذلك فان الجليد يلازمهُ اكثر ايام السنة . ومع ذلك رضيت بهِ مدة وفقًا للقول المأثور اذا لم يكن ما تريد فاردد ما يكون وعللت نفسها ان كوريا قريبة من هذا المرسى فلا بُدَّ من ان يسعدها الحظ فتنتهز فرصة للداخلة في امور هذه البلاد فتستولي عليها او على الاقل تكون تحت حمايتها وتتوصل من ثم الى ميناء فيها يغنيها عن فلاديفوستك ويفتح بابًا لتجارتها في الشرق الاقصى

الاَّ ان الدولة الروسية كانت تعلم الصعوبات التي تحول دونها ودون متمناها هذا . واقلُّ هذه الصعوبات معارضة الصين وربما اليابان لانها لم تكن اذ ذاك تحسب حسابًا لليابانيين لحداثة عهدهم بالظهور بين الدول التي يُؤبَهُ لها . وكان معظم خوفها من معارضة الصين راجعًا الى ما بينها وبين كوريا من ترامي المسافات وصعوبة المسالك التي تحول دون ايصال قواتها

البرية الى تلك الاصقاع النائية . ومعلوم انها ان لم تُعِدَّ العدَّة للتغلب على هذه الصعوبة فلا يبعد ان يحلَّ بها الفشل ولا سيما اذا اتفقت الصين واليابان معًا على مناوأتها

وواضح أنَّ اهمَّ ما كانت روسيا لتُعِدَّهُ انما هو تقريب المسافات وتذليل وعورة المسالك وبعبارة اخرى مدّ السكك الحديدية تسهيلاً وتعجيلاً لنقل قواتها الحربية التي يتوقف عليها فوزها في العراك الذي كانت تقدِّر وقوعهُ قبل ان تضمَّ كوريا الى املاكها او تستولي على ميناء من موانيها بغي بحاجتها التجارية وما الى ذلك من اغراضها السياسية

وعليهِ فكان في حوالي سنة ١٨٨٤ ان المرحوم القيصر اسكندر الثالث اصدر امرهُ بمدّ سكة حديد سيبيريا لتصل بين املاكها في اوربا وبين ميناء فلاديفوستك وان يتصل هذا الخط العظيم بخط موسكو مارًّا في شمالي الاملاك الصينية ومن جملتها منشوريا . ولما كان هذا الخط من اطول الخطوط الحديدية في الدنيا ويقتضي من النفقات ما تنوء تحتهُ اعظم الشركات المالية التجارية فضلاً عن ان فائدتهُ التجارية لذلك الحين ولحد هذه الساعة كانت بحيث لا يخطر ببال شركة من الشركات ان تباشر مدَّهُ على نفقتها — باشرت الدولة الروسية مدَّهُ على حسابها

وكثرت التقوُّلات حينئذٍ في شأن هذا الخط وارجف بهِ الكثيرون وبالغاية التي من ورائهِ وهوَّلوا بكثرة نفقاتهِ حتى صرَّح بعضهم ان الدولة الروسية تعجز عن مدّهِ وأن لابدَّ لها من الوقوف دون اتمامهِ كل ذلك ليثنوا عزمها عن مدّهِ او اقلهُ ليثبطوها ستينًا عديدة عن انجازهِ لكنَّ الروس ما زالوا على عزمهم فيهِ وما فتئت دواتهم تجعل لهُ في ميزانيتها سنة بعد سنة مخصَّصًا كما كانت تجعل لجيوشها البرية او لاساطيلها البحرية الى ان توفي المغفور لهُ اسكندر الثالث سنة ١٨٩٤ وكان قد انجز معظم هذا الخط الاَّ اجزاء منهُ بين فلاديفوستك وبحيرة بيكال وتجلَّى لعيون الكثيرين أنَّ ما كان في عداد الاوهام او خيالات الاحلام اصبح من حقائق اليقظة

وفي سنة ١٨٩٤ تولَّى اريكة العرش الروسي جلالة القيصر الحالي نقولا الثاني وكان الخط كما قلنا بلغ حدود منشوريا شمالي خربين فما انحرف فيهِ عن خطة والدهِ شعرةً واحدة الاَّ ما كان من تغيير خط سيرهِ فانهم كانوا بادي بدء ينوون بهِ ان يسير في الاملاك الروسية مجاريًا نهر عامور فبدا لهم ان يعدلوا عن هذا التخطيط ليمروا بهِ في منشوريا الصينية راسًا الى فلاديفوستك مارًّا بخربين . وبعد مخابرة دولة الصين وبذل الوسع في اقناعها تم لعمال القيصر ما ارادوهُ ومرَّ الخط على خربين في شمالي منشوريا على ما تراهُ مرسومًا في الخرائط الحالية

ماذا كان يجري في اليابان

لنترك الآن عمال الروس يخابرون دولة الصين في ان تسمح لهم بمد هذا الخط في املاكها تارةً يهولون عليها وتارةً يحاسنونها ويتزلفون الى اصحاب الحل والعقد فيها على عادة الروس وغيرهم من الدول الاوربية في الشرق ولنرجع الى ما كان يجري في اليابان

كانت هذه الامة قد انتبهت من غفلتها الشرقية ورأت ما هي عليهِ هي والصين من الضعف بازاء الدول الاوربية الكبرى . ورأت ان ضعفها لم يكن من حيث تأخر اهلها في الصناعة والزراعة — فان الصين واليابان من هذه الحيثية كانتا ولا تزالان في مقدمة العالم اجمع — انما كان ضعفها من حيث تأخرها في الجندية البرية والبحرية . وهنا نقول ان تفوق الممالك الغربية على الممالك الشرقية واستتباعها لها والسيطرة على رؤسائها سببهُ قوة جنديتها وانتظامها وبلوغها في ذلك اعظم المبالغ بما أُدخل اليها من قوة العلم الطبيعي والرياضي والميكانيكي . ولو ان اوربا اقتصرت في تمدنها على ترقية زراعتها وصناعتها فقط وضربت من حولها سورًا يمنع ما يجاورها من الامم من شرّ الغارة عليها كما فعلت الصين منذ مئاتٍ من السنين لكانت رجال التعايشي مثلا اجتازت اليها البحر المتوسط ولم تبقِ في ديارها دارًا الاَّ دوختها واعملت فيها السيف والنار حتى تركتها قاعًا صفصفًا

فلما استفاقت اليابان من غفلتها بما نبهتها المدرعات الاميركانية اولاً ثم الانكليزية ثانيًا وكانت قد رأت ما حلَّ بجارتها الصين على ضخامة ملكها وكثرة عدد سكانها وقوة رجالها فلم يغنِ ذلك عنها شيئًا بازاء الذوارع الانكليزية رأت ان تتلافى ما نقصها من هذا التمدن الحربي بتقليد اهلهِ فيهِ والجري على خطتهم في جميع مقوماتهِ فامتدعت اليها الضباط الحربيين من فرنسا والمانيا اولاً ثم اخذت في ارسال الوفد بعد الاخر من ابنائها الى انكلترا واميركا وفرنسا والمانيا حيث درسوا العلم الحربي وما هو من متعلقاتهِ على اهلهِ وتعلموا لغتهم وقرأوا كتبهم وجرائدهم فعرفوا اغراضهم وما تنزع اليهِ نفوسهم من الاثرة والسلطة وعادوا الى بلادهم بما تعلموهُ فعلموهُ واذاعوهُ في بلادهم شرقًا وغربًا وقرنوا العلم بالعمل

وأول ما توجَّهت اليهِ همَّتهم انهم باشروا في تنظيم جيوشهم البرية والبحرية على الطريقة الاوربية وما زالوا يدأبون على ذلك نهارًا وليلاً حتى تمَّ لهم هذا التنظيم على ما يريدون واوربا في غفلةٍ عنهم اولاً لبعدهم عنها وثانيًا لمجاملتهم دولها وتغافلهم عن مطامعها وفتح بلادهم لتجارتها من غير ان يفتحوا لها بابًا للداخلة في شؤونهم الخاصَّة فلم يشعر اهل اوربا الاَّ وعند اليابان جند منظَّم كاحسن ما يكون من الجند عندهم

فلما تمّ لليابانيين كل ذلك احسوا بالقوّة وسمت نفوسهم الى ما تسمو اليهِ امّةٌ مستقلة يبلغ عدد سكانها خمساً واربعين مليوناً لسانها واحد ودينها واحد وعوائدها وتقاليدها واحدة ولا اقول شيئاً عمّا وُفّقوا اليهِ في بلادهم من الانقلاب السياسي العظيم وقيام الميكادو الحالي ومن حولهِ نخبة من رجال الامة اجتمعت كلمتهم على رأي واحد وانصرفت وجهتهم الى تعزيز شأن بلادهم فاخلصوا لمليكهم واخلص مليكهم لهم وعزز كل منهما شأن صاحبهِ اولئك نظموا ومنّوا وذاك بما لهُ من نافذ السلطة امر ان يوضع ما نظّموهُ ومنّوهُ على سير البلاد موضع الاجراء والعمل بموجبهِ من غير تردُّدٍ اوحفيظةٍ . وكل ذلك تمّ لليابان قبل ان أتمّ الروس مدّ خطهم الحديدي الى فلاديفوستك ولا شك انهم علموا ما كان بعلمهُ غيرهم من غاية روسيا بمدّ هذا الخطِ فانهُ كان اظهر من الشمس انهم كانوا يريدون بهِ فتحاً في كوريا ومنشوريا ليتوصلوا الى ميناء بحري في تلك الاصقاع لا يتسلط عليهِ الجليد فيعزز نفوذهم في الشرق الاقصى ويربط تجارتهم بتجارتهِ

وكانت اليابان اصيحت تطمع فيما تطمع بهِ الدول الاوربية من السطو على الصين فوجهت مطامعها الى كوريا وهي اقرب اقسام هذه المملكة اليها ليس بينها وبين بعض جزرها ما يزيد على التسعين كيلو متراً وكوريا هذه بلاد خصيبة التربة غنية بالمعادن الثمينة والفحم الحجري وفيها من النفوس نحو من سبع ملايين او يزيد

وكان اول ما حاولتهُ اليابان ان تسلخ هذه البلاد عن الصين ليتهيأ لها ضمها اليها في المستقبل او على الاقل السيطرة عليها دون الصين والانتفاع بخيراتها . وللتوصل الى غايتها هذه ارسلت في سنة ١٨٧٦ معتمدين من قبلها الى عاصمة كوريا واظهرت الغفلة عما للصين من السيادة عليها بان عقدت معها معاهدة من اول بنودها ان كوريا بلاد مستقلة متمتعة بجميع الحقوق التي تتمتع بها اليابان فكانت هذه المعاهدة اول خطوة خطتها اليابان لتفتح لها باباً للمداخلة في احوال كوريا

اما الصين فلغفلتها وجمودها لم تعترض صراحةً على ما فعلتهُ اليابان واكتفت بان ارسلت من قبلها وكيلاً سياسياً الى سيول عاصمة كوريا وجرّت على نفسها بغفلتها ويلاً طويلاً لان اليابان لم تلبث بعد هذه المعاهدة ان اقامت لها سفارة في كوريا واخذت في دس الدسائس بينها بين الكوريين حتى صارت سفارتها هذه خليّةً لاهل الفتنة والثوّار من الناقمين على الاسرة المالكة في كوريا . واشتدّ الحال سنة ١٨٨٢ بالكوريين حتى ثار ثائرهم على اليابانيين فهجموا على سفارتهم واضطروا من فيها الى الهرب بحياتهم الى حيث جاءوا فتذرّعت اليابان

بهذا الحادث وارسلت من قبلها جنوداً الى كوريا لتحمي سفارتها ورعاياها من تعدي الكوريين عليهم كما زعمت وما زالت على خطتها هذه تحذو حذو الاوربيين في نصب الفتن توصلاً الى ما تقصد الى ان كانت سنة ١٨٨٢

وفي هذه السنة تفاقم الخلاف بينها وبين الصين على كوريا الاَّ انهُ انتهى بعقد المعاهدة الآتية

(اولاً) ان تعترف اليابان بتقدم الصين عليها في كوريا

(ثانياً) ان تسحب جنودها من كوريا

(ثالثاً) اذا حصل لليابان ما يدعو الى ارسال عساكرها الى كوريا فعليها قبل ارسالها ان تعالن الصين بذلك

(رابعاً) اذا حصل في كوريا ما يدعو الصين الى ارسال جنودها اليها فعليها ايضاً ان تعالن اليابان قبل ارسالها

والظاهر ان الصين رضيت بهذه المعاهدة غفلةً منها واعتماداً على ما تعلم من ميل الكوريين اليها ونفورهم من اليابانيين من جهة واستخفافاً بقوة اليابانيين وسياستهم من جهة اخرى . واما اليابان فكانت على بينة مما تسعى اليهِ عالمة الى اين يتنهي بها المسير . وهكذا انقضى الخلاف بين الدولتين الى حين

فلما كانت سنة ١٨٩٤ وكان الخط الرومي الحديدي وصل الى يكال ومدَّت بعض اقسام منهُ بين يكال وفلاديفوستك وتوجَّهت خواطر عمال الروس الى ان يمروا بهذا الخط في شمالي منشوريا من ارض الصين الى ميناهم شرقي كوريا قامت اليابان تحول دون الروس ودون ما يتمنون وزعمت انها تخيت عليهم ثمرات هذا الخط في المستقبل وتوهمت انها كفوة لذلك وجرَّأها على ذلك ما رأت من التحاسد والتغاير في المصالح بين الروس وبين بريطانيا العظمى فاوجدت بعض المشاغب في كوريا حتى اضطرت هذه الى طلب مساعدة الصين فارسلت اليها الصين جنودها واعلمت اليابان بذلك وفقاً للمعاهدة التي اشرنا اليها آنفاً . وبعد ان وصلت جنود الصين الى كوريا اخذت اليابان تختلق المعاذير والاسباب حتى شهرت الحرب على الصين واظهرت انها لا تنوي ضمَّ شيءٍ من هذه المملكة الى بلادها انما تريد مجرَّد اصلاح الحال في كوريا

الاَّ ان اليابان لم تحسن تقليد الدول الكبيرة فيما فعلت ونظرت الى القريب دون البعيد فلم تفطن لمعنى المثل القائل " قدِّر لجنبك قبل النوم مضطجعا " لانهُ فاتها بحسب الظاهر انَّ في عملها هذا مناواةً لروسيا وأن روسيا مثلها ان لم تكن اشدَّ منها دهاءً . ومن تلك الساعة

ابتدأت سلسلة اغلاطها المتوالية التي دفعتها اخيرًا الى حربها الحاضرة فسعت الى حتفها بظلفها وهي لا تعلم . وكان عليها ان تتروّى في الامر فان بريطانيا العظمى كانت مثلها تعرف ان القصد من مدّ روسيا خطّها الحديدي انما هو التوصل الى فرضةٍ في البحر الصيني تسهيلاً لتجارتها هناك ومحطًا لاساطيلها وهذا امر يهمّ بريطانيا العظمى كما يهمها هي ان لم يكن اكثر منها ومع ذلك لم تندفع بريطانيا العظمى الى ما اندفعت اليهِ اليابان وكان يمكنها مثلها ان تختلق اسبابًا وتحلّ في كوريا ومنشوريا وتحول دون الروس وما ينوون . ولكنها (اي بريطانيا العظمى) ادركت ان فعلها هذا يكون سببًا للحرب بينها وبين الروس في المستقبل فاحجمت عن مناوأتهم واندفعت اليابان الى ذلك اغترارًا وهي دون بريطانيا العظمى بمراحل منعةً وقوةً في المال والرجال وضخامة الاساطيل البحرية

ووجه غلطها انها لم تنظر الاّ الى الحاضر ولم تتدبّر ما يكون من روسيا بعد الحرب مع الصين واكتفت بما كان يظهر لها من انّ روسيا لا تستطيع ان تفتح عليها حربًا الاّ بسبب ظاهر تجيزهُ لها القوانين الدولية ولمّا لم يكن يظهر لها سبب اكتفت بهذا القدر ولم تفطن او لم ترد ان تفطن الى ما يكون من دهاء الروسية عند نهاية الحرب ولا الى ماذا تستطيع ان تفعلهُ لتحول بينها وبين الحلول في كوريا ومنشوريا فبدأت الحرب الصينية والظفر حليف لها والآمال ملء صدرها ليس ثمّت بحسب الظاهر ما يوجب سوء المغبة وظنّت انها خدعت الروس وحالت بينهم وبين ما ينوون

فلما تمّ لها الغلب وتربّعت في كوريا ومنشوريا اذا بروسيا وقفت في وجهها وفرنسا والمانيا معها احداها عن يمينها والاخرى عن شمالها وملامح الغفلة عما اكتنفهُ اليابان بادية على وجوه سفراء هذه الدول فاظهروا لها انهم اعتقدوا ويعتقدون ان السبب الظاهر الذي قدمتهُ عذرًا لها عن نزولها ساحات هذه الحرب هو السبب الحقيقي اي انها حاربت لخدمة المدنية والانسانية لاطمعًا في ارض الصين ولا رغبةً في التسلّط على كوريا وشكروا لها باسم الانسانية عملها وغبطوها على ما فعلتهُ في سبيل هذه الخدمة الجليلة المبرورة وابلغوها بالنيابة عن القيصرين والجمهورية الفرنساوية مزيد الثناء على خدمتها هذه التي قامت بها بكل خلوص نحو التمدن والانسانية وسألوها ان ترجع الى بلادها لانهُ لا حاجة بعد الى خدمتها لانها تمت . فبُهتت اليابان وكأنها لم يكن يخطر لها في بال ان الروسية تحاربها بمثل هذا السلاح فوقفت لا تحير جوابًا فلا هي تستطيع انكار ما صرّحت بهِ عند اشهار الحرب ولا هي في وسعها ان تكشف عما كانت تخفي من معارضة الروس والحيلولة بينهم وبين ما مدّوا الخط الحديدي من اجلهِ .

وحينئذٍ تبين لها ان الروس كانوا امكر منها وادهى . ولو كانت اليابان التفتت دهاء السياسة كالاوربيين لأعدّت لمثل هذا الاعتراض عُدّتهُ من المال والرجال وضخامة الاساطيل فكان ذلك جوابها كما يفعل الاوربيون في مثل هذه الحال او لكانت اقلهُ اعتمدت على دهاء السياسة فلم تخض غمار هذه الحرب الاَّ بعد ان اتَّفقت مع انكلترا واميركا على ان تقفا معها في وجه الروس من جهة ودبرت من قبل على منع اجتماع الروس والالمان والفرنساويين عليها من جهة اخرى ولكنها لم تفعل شيئاً من كل هذا واكتفت ان خدعت نفسها بان خداعها ينطلي على غيرها وان الروس لا يجدون اعتراضاً في نهاية الحرب على ما قدّمتهُ من الاسباب لمحاربة الصين واحتلال كوريا ومنشوريا فاضطرّت ان تضع خرج خداعها على كتفها وترجع من حيث جاءت

فان قيل وماذا كان يجب ان تفعل اليابان قلت لو كانت من دهاء السياسة على ما هي عليهِ الدول الكبرى لكانت دفعت انكلترا واميركا الى هذه الحرب بدلاً من ان تندفع هي اليها فان انكلترا اهمها امر هذه السكة اضعاف ما اهمَّ اليابان وذلك ظاهر من المقالات التي كانت تحبّرها جرائد هذه الامة العظيمة لتثبط هذا المشروع ولما هو معلوم من تنازع هاتين الدولتين النفوذ في الشرق وما رسخت عليهِ تقاليدها من ان كل دولة منهما تسعى في وضع حدٍّ لنفوذ الاخرى وتتربص بها الفرص . ولو صبرت اليابان كما تصبر روسيا او انكلترا او فرنسا مثلاً لكان المرجح ان تأخذ انكلترا وحدها او بالاتفاق مع غيرها على نفسها ما اخذتهُ هي من معارضة الروس في مشروعهم هذا وهي اقدر منها على ذلك من كل الوجوه واعرف وتجارتها الواسعة في الصين وخوفها من تغلُّب النفوذ الروسي هناك على نفوذها وخسارتها الكبيرة من جراء ذلك اضعاف ما تخسرهُ اليابان كل ذلك كان داعياً لانكلترا (لو صبرت اليابان) الى ان تأخذ على نفسها تحمُّل الحمل الذي اخذت اليابان نفسها بحملهِ وهي تعجز عن النهوض بهِ

ولو ان اليابان نظرت نظر متأمل الى ما كان بين هاتين الامتين اعني الروس والبريطان من المنازعات الشديدة على كل شبرٍ من الارض في اوربا واسيا والى ما تولد بينهما بسبب ذلك من الاحقاد الشديدة لعلمت عن يقين ان روسيا لا تقصد الاَّ مناوأة انكلترا والحط من نفوذها والتضييق على تجارتها الواسعة في مملكة الصين انتقاماً منها على ما كان من معارضتها اياها واخذها بالخناق في كل موضع طمحت اليهِ ببصرها ولا سيما في اوربا . واذا كانت بريطانيا العظمى هي المقصودة فكان الاولى باليابان ان تتركها تقلع شوكها بيدها وبريطانيا اخبر منها

بمعارضة الروس وتعرف كيف واين ومتى تعارضها وكان لابد لها من ان تبذل آخر ما في وسعها لمنع ما تتوقع حدوثهُ من غوائل هذا الخط على نفوذها . ولكن حديث النعمة بالغنى او بالقوة كثيرًا ما يطر ويسيء استعمال غناهُ وقوتهُ فيضيع ما حصلهُ ويشمت بهِ جيرانهُ بعد اذ تدور عليهِ الدوائر . وبالاجمال فاليابان تعرَّضت لما كان اولى بها ان تترك لمن هو اقوى منها التعرُّض لهُ والذود عنهُ

الحوادث التي تلت انتصار اليابانيين وحلولهم في منشوريا

فيا كانت روسيا تخابر الصين لتسمح لها أن تمرَّ بخطها الحديدي في شمالي بلادها الى فلاديفوستك لا تطمع باكثر من ذلك اذا باليابان اشهرت الحرب على الصين فابرقت للروس بوارق امل فاستبشروا ووقفوا يرقبون سير الحوادث لا يلعنون ولا يباركون واليابان تظنُّ انهم مخدوعون ولاسيما بعد أن ظفرت المرة والمرتين ولم ترَ من تلك الدولة اعتراضًا . واخيرًا تمَّ لها النصر ووقفت على ابواب بكين وقفة الظافر حتى اضطرت الصين الى طلب الصلح وعيَّنت المفوَّضين لهُ من قبلها واخذوا بوضع شروطهِ وروسيا كل هذه المدة لا تبدي ولا تعيد . فلما لم يبقَ الاَّ التوقيع على عهدة الصلح نفضت عنها غبار سكونها ووقفت كأنما بغتةً في وجه اليابان هي والمانيا وفرنسا نهدموا كل ما كانت اليابان قد بنتهُ

وبيانهُ ان الصينيين كانوا وما زالوا ينظرون الى اليابانيين بعين الاستصغار يرونهم دونهم في العلم والصناعة والقوَّة ودهاء السياسة ويطلقون عليهم اسم الافزام ازدراء وتحقيرًا . والحق انَّ اليابانيين كانوا الى ما قبل نهضتهم الاخيرة ينظرون الى الصينيين نظرتنا نحن الى اوربا واميركا يرونهم ارقى تمدنًا واضخم ملكًا وادهى سياسةً ويقلدونهم كما نقلِّد نحن الاوربيين ويرسلون شبَّانهم لاخذ العلم عنهم فلما نهضوا نهضتهم الاخيرة وطرحوا عنهم جانبًا تقليد الصين وامتدَّت اعناقهم الى مزاحمة هؤلاء النفوذ في كوريا والتطول عليهم في العلم والسياسة ابغضهم الصينيون بغضًا شديدًا فلما غلَّب اليابانيون واكرهوا حكومة بكين على عقد صلح شائن من جملة موادهِ ان يتخلوا لليابان عن منشوريا اكرم ولايةٍ على البلاط الصيني لانها منشأ الاسرة المالكة صعب الامر جدًّا على الصينيين حتى فضَّل مياسيهم الشهير لذلك العهد " لي هنغ شنغ " ان يستسلم للدول الثلاث الاوربية روسيا وفرنسا والمانيا يقتطعهم من بلادهِ ما كنَّ يطمعن باخذهِ ولا يحلمن ان تسنح لهنَّ الفرصة القريبة فيهِ من ان يرى اليابان في كوريا ومنشوريا في مقام السائد والمسيطر عليهِ وعلى مليكهِ . وعليهِ لم يتردَّد في اجابتهنَّ الى ما طلبنَ ووقَّع سرًّا على ما اقترحنهُ عليهِ من المطاليب على ثقلها بشرط ان تسرع هذه الدول الى ازاحة اليابان عن

منشوريا وكوريا فاسرعنَ الى اجابته وارسلنَ الى اليابان بلاغهنَّ أن اتركي منشوريا وكوريا كما المعنا الى ذلك فلم يكن لها بدٌّ من الاجابة ولم يسع انكلترا واميركا ان تأخذ بناصرها على هذه الدول الثلاث وذهبت حينئذٍ احلامها في احتلال كوريا ومنشوريا ضياعاً ومساعيها في الحيلولة بين روسيا وبين حلولها في منشوريا ادراج الرياح . بل تبيَّن لليابانيين انهم كانوا اكبر مساعد في حربهم هذه على تمكين الروس من احتلال البلاد التي كانوا يحلمون باحتلالها ولا يصدقون امكان ذلك في الزمن القريب

وهنا نسأل ولماذا لم تشرك هذه الدول معها انكلترا في الاتفاق مع الصين على اليابان قلنا ان هذه الدولة العظيمة القديرة ما كانت لتؤخذ بدهاء غيرها بل هي ادهى مَن ان تُدهى ولقد عرضنَ عليها ان تشترك معهنَّ فوجدنها وافقةً لهنَّ بالمرصاد تأخذهنَّ بظاهر مدعاهنَّ كما اخذن هنَّ اليابان بظاهر مدعاها وتُعاندُهنَّ حرباً وثبوراً اذا هنَّ اردن تجزئة الصين فلم يسعهنَّ الاَّ اخفاء ما اخفينهُ من معاهدة "لي دنغ شنغ" الى ان يتمَّ لهنَّ استرضاؤها

وبماذا يتم استرضاء بريطانيا العظمى ايبذلنَ لها جانباً من الصين ووادي يغتسي العظيم الداخل ضمن دائرة نفوذها ام يبذلن لها شنغاي وهنكوك وهذه الشطوط البحرية في يدها منذ زمن طويل . ليس في الصين الواسعة الارجاء ما يسترضي بريطانيا العظمى وحبهات ان يُفتات عليها وتغضي مع ذلك على القذى وهي ملكة البحار وفي يدها مفاتيحها من بوغاز جبل طارق الى خليج بتشيلي فلا تستطيع المانيا ولا كذلك روسيا ان تخطوا في البحر خطوةً واحدة لتستوليا على املاكهما الجديدة الاَّ بعد اذن بريطانيا وسماحها . نعم ان روسيا يمكنها ان تمد خطها الحديدي في منشوريا الى فلاديفوستك بدون اذن بريطانيا اما ان تتقدم خطوةً واحدةً الى ما تعنَّت بمد هذا الخط من اجله اعني الى بورت ارثر ودلني فلا . واما المانيا فاعجز من قتيل الدخان مع بريطانيا . وقد كان من حسن حظ بريطانيا ان دخلت المانيا في محالفة الروس وفرنسا لانها بدخولها تحتم على فرنسا وروسيا ان تسترضيا بريطانيا بما لم تكونا لتسترضياها به لولا المانيا كما انهُ كان من حسن حظها ايضاً ان دخلت فرنسا مع روسيا فان فرنسا بدخولها مع روسيا قضي عليها ان تسترضي بريطانيا بما لم تكن لتسترضيها به لولا روسيا كما سيظهر لك ذلك بعد قليل

فان قلت فلماذا تعنت روسيا لادخال هذه الدول معها قلت خوفها من انكلترا ان تتصدى لممانعتها دون الوصول الى رغائبها وهذه الدول مع انكلترا عليها فان هاتين الدولتين لو فرضنا ان روسيا كانت حالفت الصين بدون مشورتهما على ان تخرج اليابان من منشوريا لتحللها هي كانتا

على الراجح في جانب انكلترا عليها واذا اتفقت كلمة هذه الدول الثلاث لم يكن للروس في الشرق الاقصى الاَّ الانخذال والصبر على مضض الخيبة والفشل الى ما شاء الله من الزمان

والخلاصة ان روسيا سبقت انكلترا الى الاتفاق مع فرنسا والمانيا ولم تكن انكلترا تستطيع سبقها الى محالفتهما لانها لو تصدت لذلك ابتداء ما وافقتاها على الراجح من جهة ولظهر طمعها واعتداؤها على اليابان وعلى الروس معاً من جهة اخرى

الاَّ انهُ بعد اتفاق الدول الثلاث على اليابان واخراجها من منشوريا وكوريا على ان روسيا تحتل بورت ارثر ويكون لها النفوذ في منشوريا وكوريا وعلى ان تحتل المانيا خليج كيوتشو في ولاية شانونغ وفرنسا بعض جهات التونكين الخ بعد ان تمَّ كل ذلك واصبح الرجوع يُعدُّ فشلاً وايًّا فشل على هذه الدول الثلاث معاً قامت انكلترا في وجه هذه المعاهدة تبرق وترعد وأعدَّت اساطيلها الضخمة فجعلتها على قدم الدفاع عن الشرق الاقصى واعادت الكرة على الصين والزمتها ان تسلّمها "واي هاي واي" وهي الى ستين ميلاً جنوبي بورت آرثر وربما في امنع منها حصناً واوسع مرفأً للبوارج والسفن وستبقى هذه المدينة في يدها ويبقى نفوذها على البلاد المحاذية لها ما بقيت روسيا في بورت آرثر وبقي نفوذها في منشوريا

وسافرت مراكب الفرنسويين على التونكين وتلاها المراكب الالمانية على خليج كيوتشو وآخر الكل ذهبت العمارة الروسية الى بورت آرثر واحتلَّتها وذلك في سنة ١٨٩٨ وكانت العمارة الانكليزية مرابطة هناك فاظهر اميرالها المعارضة للروس لكن لم يلبث ان جاءهُ البرق من عاصمة بلاده ان اترك بورت آرثر وخلِّ الروس وشأنهم فيها. وكتاب الانكليز يتجاهلون ويلوِّمون حكومتهم لانها امرت اسطولها بالخروج من بورت ارثر وتسليمها للروس

بورت ارثر في يد الروس

يستحيل ان تكون روسيا استأجرت بورت ارثر لوحدهِ بدون ان يكون بينهُ وبين سكنها في الشمال اتصال يربطهُ ببلادها بحيث يمكنها الانتفاع بهِ ولذلك لم تلبث ان ارسلت اليهِ عمارتها حتى باشرت بمد الخط الحديدي من خربين اليهِ والى دالني مارًّا بموكدن وليانونغ وكيتنغ واظهرت في ذلك مزيد الهمة والسرعة وكل ذلك لم يكن مجهولاً لدى الحكومة الانكليزية الاَّ ان الامة الانكليزية لما رأت الروس يجدون في تحصين بورت ارثر وقد وصلوا بينهُ وبين خربين بسكة حديدية حربية تخوفت على تجارتها ونفوذها في شمالي الصين فاخذت رسائل كتابها هناك وتقاريرهم ترد على البلاد الانكليزية وكلها تصرخ بصوتٍ واحد ان روسيا ابتلعت منشوريا وشمالي الصين واصبح النفوذ الانكليزي والمصالح الانكليزية على وشك الانعدام

امام النفوذ الروسي والمصالح الروسية وسواء كانت تقريراتهم هذه صحيحة ام مبالغ فيها فذلك مما لا نتعرّض لهُ انما نقول ان الغرفة التجارية العليا في بريطانيا ارسلت اللورد تشارلس برسفرد وهو من امراء البحرية ورؤساء الجند الى الصين وظاهر هذه الرسالة انها للتفحص عن احوال التجارة خلوًا من كل صبغة سياسية الاَّ ان المطلع على تقرير هذا اللورد يرى انهُ زار ولاة اغلب الولايات الصينية المهمة وزار القلاع والحصون واستعرض الجيوش ووقف على عددهم وانواع اسلحتهم ونظامهم وما في الولايات من الذخائر والمون الحربية وعرف ما بين الولايات من العلاقات والارتباطات الى آخر ما يمكن لمثلهِ ان يعرفهُ . وغاية ما وصل اليهِ وهو من اهم الحقائق بالنسبة لامتهِ ان الجندية الصينية لا تستطيع ان تقف في وجه الروسية ولا يمكن لانكلترا ان تعوّل عليها لا في الحال ولا في المستقبل القريب في كبح جماح الروس والغضّ من تطوّلهم على النفوذ البريطاني هناك . ومن ثمَّ وجَّه هذا اللورد والقائد الشهير وجهتهُ صوب اليابان فتلقّاهُ رجالها على الرحب والسعة واطلعوهُ على حال جيوشهم البرية والبحرية فعرف عددها واسلحتها ومبلغ تدريبها وما الى ذلك من وسائل النقل ومقدار الذخائر والمون فاعجبهُ كل ذلك ورجع الى بلادهِ في اوائل سنة ١٨٩٩ بعد ان مرَّ بالولايات المتحدة وهو على علم من احوال اليابان وما تستطيعهُ هذه الدولة من معارضة الروس برًّا وبحرًا والرضا مالئ قلبهُ ووجههُ وقد ادرك ان ضالة امتهِ التي تنشدها في معارضة النفوذ الروسي وكبح جماحهم انما هي في اليابان لا في الصين

والظاهر ان تقريرهُ حاز قبولاً عند امتهِ فانهُ مذ ذلك الحين اخذ الكتاب الانكليز يكتبون الفصول الطوال عن الامة اليابانية و يطرون ما وصلت اليهِ من العزَّة والمنعة واخذت جرائدهم على اختلاف نزعاتها من سياسية وعلمية تحبّر المقالات الانكليزية الرنانة عن اليابان وجنديتها البرية والبحرية وما بلغت اليهِ من حسن النظام ومزيد الضبط والتدقيق في جميع اداراتها حتى ان اللورد سالسبري لم يتمالك مجاراةً لاميال امتهِ ان كتب بعد حرب البوكسر كتابهُ المشهور الى حكومة اليابان قال في كتابهِ هذا ما معناهُ "ان حكومة جلالة الملكة لتعجب شديد الاعجاب بما بدا من الجنود اليابانية من الكفاءة والبسالة في الحرب الحديثة وكان لها من ثم اليد الطولى في نجاح هذه الحملة"

واشهر الكتاب الذين كتبوا في احوال اليابان ابن الكاتب المشهور ستد صاحب مجلة المجلات الانكليزية فان هذا الرجل ذهب الى اليابان فاستقبلهُ اهلها احسن استقبال حتى انهم خالفوا فيهِ قوانين بحريتهم ونقلوهُ بامرٍ سام على دارهِ من دوارعهم وهي حفاوة لم يسبق

لغيره ان عومل بمثلها . فلما عاد الى بلاده اخذ يحبر المقالات البديعة عن اليابان واليابانيين فاقبل القوم على كتاباته وحملوها محمل الحقيقة والصحة فتوهموا في انفسهم ما توهمهُ عنهم من العزّة والمنعة كل من اطلع على هذه المقالات

ومن العجيب ان الانسكلوبيذيا البريطانية في ملحقها لسنة ١٩٠٢ جرت مجرى بقية كتاب الانكليز في الوجهة التي اتخذوها من الاعجاب باليابان والامتداح من سياستها وجميع تدابيرها التي دبرتها ولاسيما في حربها مع الصين وغطت شيئًا على ما كان من مقاصدها في هذه الحرب كتوهم انها عادلة اقامت بها هذه الدولة حبًا بالمدينة والانسانية وان الروس يخشيها حقها وعمدت بغيًا الى اذلالها وانتزاع ثمرة انتصارها منها

ولا بُدَّ لي من الاشارة هنا الى ان رجال الانكليز في اليابان اخذوا منذ سنة ١٨٩٥ في ان يثيروا خواطر اليابانيين على الروس و يؤصلوا بينهم الضغائن اي بدأوا بذلك حال انعقاد المحالفة الثلاثية على اليابان واخراجها من منشوريا و بورت ارثر . والذي حاولوهُ في كتاباتهم ورموا اليهِ جميعهم عن قوس واحدة هو ان كوريا ومنشوريا ضروريتان لكيان اليابان لا تقوم لها قائمة بدونهما وان الروس باخراجهم منهما تعمدوا الضرب على اصول كيانهم وحياتهم وان وضع منشوريا تحت سيطرة روسيا هو وهدم استقلال اليابان شيء واحد ونجحوا في ذلك حتى لم يبق احد في اليابان لهُ قول الاَّ ويقول بهذا القول ولم يقف الكتاب الانكليز عند هذا الحد بل اخذوا ينشرون المقالات الضافية الذيول عن الروس وعن سياستهم وما في ادارتهم من الخلل والفساد وما بين رجالهم وشعوبهم من الضغائن والاحقاد ولا سيما عما في ماليتهم من الوهن والعجز حتى يخيل لمن يقرأ بعض هذه المقالات ان الروس على شفا من الافلاس . وآخر مقالة لاحد كتابهم المشهورين في مجلة القرن التاسع عشر عنوانها تاريخ بورت ارثر صرَّح فيها هذا الكاتب ان اليابانيين بواسطة جواسيسهم الكثيرين عرفوا كنه الروس وما فيهم من الضعف والوهن وانهُ لا يلبث ان يكشفوا لاهل العالم اجمع عن ظاهر الامة الروسية المموَّه وباطنها المشوَّه ما كشفوهُ عن ظاهر الصين وباطنها في حربها الاخيرة معها

وخلاصة ما يقال ان الكتاب الانكليز في مدى سنين قلائل اصَّلوا في نفوس اليابانيين اشد الكره للروس وجرَّأوهم عليهم بما هوَّنوا من امرهم وما كشفوهُ عن مواطن الخلل والضعف في ماليتهم وجنديتهم ولا سيما الاخيرة لما يعترض دونها من بعد المسافات وصعوبة النقل والتموين وجاؤوا على ذلك من الادلة والبرهين الظاهرة ما يخيل لكل من وقف على كتاباتهم ان الامر كما ذكروا . والظاهر ان جمهور الامة اليابانية اعتقدوا كل ذلك ولم يبق شيء

يحذرونهُ او يخشونهُ في محاربة الروس الاَّ اتحاد فرنسا معهم وانضمام اسطولها الى اسطولهم وهذا ما دفع الحكومة اليابانية الى الالتجاء الى الحكومة الانكليزية وعقد معاهدتها المشهورة معها فضمنت لهم هذه غوائل هذا المحذور ووعدتهم انها تكون معهم تحارب بازائهم فيما لو انضمت دولة اخرى (اي فرنسا) الى روسيا وحاربت معها

ماذا كان بعد ان احتلت روسيا بورت آرثر

لا نحتاج ان نعيد ما كان من مقاصد روسيا ولا ما كان من اليابان في معارضتها لها انما نقول انهُ لما اتفق الدول الثلاث مع الصين واخرجن اليابان من كوريا ومنشوريا أُكرهت انكلترا اكراهاً على التسليم بالمعاهدة الثلاثية الصينية التي من مقتضاها ان تستأجر روسيا بورت آرثر على مئة سنة وان توصل بينها وبين املاكها في اسيا بسكة حربين ولم يكن يخفى شيء من كل هذا على انكلترا ولا ان روسيا تغفل عن تحصين بورت آرثر وجعلها من القوة والمنعة بمكان الاَّ ان روسيا لم تقف عند هذا الحد فان حوادث البوكسر سنة ١٩٠٠ مهَّدت لها السبيل الى خرق اكثر ما وعدت بهِ في شأن منشوريا وذلك ان الحكومة الصينية المنشورية اشهرت الحرب على روسيا فتذرعت روسيا بهذه الوسيلة الى ارسال عساكرها الى منشوريا واحتلالها الثوار فيها وانجلى الامر عن عقد اتفاقية بين معتمدها في منشوريا وبين الجنرال تسانغ التتري في موكدن مودَّاها ان تكون منشوريا سياسيًّا وعسكريًّا تحت سلطة روسيا. ثم لم تقف عند هذا الحد بل كان منها في فبراير (شباط) سنة ١٩٠١ ان عقدت بينها وبين الصين بواسطة سفيرها في بطرسبرج معاهدة سرية لم ترد روسيا ان تشهر شيئاً من موادها والظاهر انها كانت تثبيتاً للاتفاقية التي انعقدت بين معتمدها في موكدن وبين الجنرال التتري هناك والمرجح ايضاً ان من موادها ان يكون لروسيا معاملة ممتازة عن غيرها من الدول في كل الاملاك الصينية المتاخمة للاملاك الروسية ومن جملتها منشوريا

كلمة نقولها هنا في شان روسيا وانكلترا

انهُ لا يخفى على احدٍ ما بين هاتين الحكومتين من التغاير في المصالح ومنازعة السلطة والسيادة في الشرق اجمالاً وفي الولايات الصينية الشمالية خصوصاً . واشتدت هذه المنازعة بعد استيلاء روسيا على بورت ارثر فانها ولا شك عزمت على ان تجعل هذا الميناء القوي محطاً لاساطيلها في البحر الصيني تهدد بهِ انكلترا وسلطتها البحرية في تلك الجهات وتنازعها السيادة والغلبة هناك وذلك مالا تصبر عليهِ انكلترا ثم لم تكتفِ روسيا بما سوغتهُ لها المحالفة الثلاثية بل اغتنمت انشغال الانكليز في حرب الترنسفال فاحتلت منشوريا احتلالاً سياسيًّا وعسكريًّا

واشهرت احكامها العرفية في تلك البلاد الواسعة وزادت ايضاً على ذلك معاهدتها السرية بينها وبين الصين ففرغ لذلك صبر انكلترا . لكن كان قد فات الفوت عليها بمعنى انهُ لم يعد في امكانها ان تمنع احتلال روسيا في منشوريا ولا ان تقف دون تحصين بورت ارثر ولا دون مد الخط الحديدي في منشوريا الذي يربط بورت ارثر ومنشوريا معاً بعاصمة الروس في اوربا . فماذا تفعل انكلترا ؟ انها لحكومة اخذت في الاحتجاج على الروس واخذت معها في جانبها حكومة الولايات المتحدة وما زالت الدولتان في لجاج مع دولة الروس حتى اضطرتاها الى ان تفتح دلني ونيوشوانغ للتجارة العامة وان تخفض شيئاً من غلواء معاهدتها الاخيرة مع الصين . هذا ما فعلتهُ انكلترا من حيث هي حكومة واما من حيث هي امة فانها فعلت اضعاف اضعاف ذلك وبيانهُ

ان هذه الامة النشيطة لما رأت ما يتهدد تجارتها ونفوذها في المستقبل فيما لو تُركت روسيا وشأنها بدون ان يصيبها صدمة تكسر من حدة شوكتها اشهرت حرباً عوانًا على الروس كانت فيهِ الامة الاميركية على جانبها ايضاً لكن كان المحار بين في هذه الحرب كتّابها وتجارها ومراسلوها ووكلاؤها جملةً على اختلاف انواعهم وطبقاتهم فان جميع هؤلاء قاموا قومة رجل واحد على الروس فاثاروا احقاد اليابان عليهم بما الفوا من الكتب وخطبوا من على المنابر ونشروا على صفحات الجرائد يظهرون من معائب الروس ومطامعهم حتى خيّلوا لليابان كما المحنا الى ذلك سابقاً انهم ان لم يبادروا الى كبح جماح هذه الامة المعادية في القريب العاجل فلا أمل لهم بالنجاة من مخالبها في المستقبل وما زالوا يفتلون منها في الذروة والغارب حتى اداروها الى عقد محالفة مع دولتهم فذهب المركيز ايتو السياسي الياباني الى لندن وهناك امضيت المحالفة الانكليزية اليابانية المشهورة . والحق ان الشعب الانكليزي هو الذي عقدها مع الحكومة اليابانية وأبقى حكومتهُ على ولاء مع حكومة الروس فان قلت وكيف يكون ذلك قلت ان الحكومة الانكليزية لم تعاهد اليابان على حرب الروس وان كانت تعرف انهُ سيعقب هذه المحالفة الحرب بين هاتين الدولتين بل عاهدتها على ان تمنع حليفة الروس اعني فرنسا من انجادها باساطيلها وهذا مما تصرّح بهِ الحكومة البريطانية لانتكتم بهِ ولا توارب فيهِ وتصرح معهُ ايضاً وهي صادقة انها على الحياد التام في الحرب الحاضرة . ولنمسك الآن عنان القلم فان الكلام قد طال وفيما ذكرنا ما ينبّه الى كثير مما لم نذكر وربما عدنا الى ذكر ملاحظاتنا عن هذه الحرب ونتائجها في عدد آخر والسلام

م . ع . ج